هل اللغة العربيّة غنيّة؟

ام هي فقيرة قاصرة عن التعبير عن حاجات العصر ؟

بقلم حضرة القس عبد المسيح زمر

٥

العربية بالنسبة الى هذه الحالات الثلاث

هيهات ان تكون اللغة العربية فقيرة ، فهي بعيدة عن هذه الشائبة العائبة . ولكن هل هي غنية ، ام هي غزيرة المادة ؟

الجواب: العربية غنيّة من وجه ، وفقيرة من وجه آخر ، كما انها غزيرة المادة من وجه ، وقليلتها من وجه آخر.

قلنا سابقاً ان اللغة الغنيـة هي التي فيهـا لكل معنى لفظ ، او هي التي معانيها لا تزيد على الفاظها ، والفاظها تقوم بالدلالة على معانيها ، بلا زيادة ولا نقصان تقريباً . لا ريب ان اللغة العربية كانت على هذا الوصف ، في ماضي الزمان ، يوم كان اهلها في حالة البداوة ، قليلي المعاني والحاجـات ، اذ كانت بيوتهم الشعر والاديم ، ومفرشهم الباري والبلاس ، ولباسهم الكساء والرداء ، واثاثهم الرحى والقربة والقدر ، وآنيتهم القعب والدسيعة والجفنة ، وقوتهم اللبن والتمر ، وسلاحهم السيف والرمح ، ومراكبهم الخيل والابـل ، وتنقلهم في البراري والقفار . ولكنهم لما تطوروا بتطور الحضارة ، واتخذوا البيوت المنجدة ، وتأنقوا في معالاة البيوت والصروح ، وعلاج الاقوات ، واستجـادة المطابخ ، وانتقاء الملابس الفاخرة ، زادت المعاني على الالفـاظ ، وشرعوا ياخـذون بعض الكلام ، عن الامم المجاورة لهم . فاخذوا الكثير الجمّ عن الفـارسية ، واخذوا عن الحبشية ، والعبرانية ، والسريانية ، واللاتينية ، والسنسكريتية ، والهندية ، وذلك عن حاجـة وافتقار الى تلك الالفاظ . ومهما اتصلوا بأمّة

او شعب ، اخذوا عنه ما خلت لغتهم منه . ولما احتاجوا الى تعلم العلوم التي كانوا صفرا منها ، وعمدوا الى نقل كتب علماء اليونان الى لغتهم ، ادخلوا فيها كلاماً كثيراً ما كانوا يعرفون له لفظاً في اوضاعهم ؛ وهذا ليس بعيب ولا بعار . لانّ الشعوب في اول امرها ، لمّا كانت تعيش في البداوة ، مستقلة بعضها عن بعض ، غير متعاونة ولا اجتماع لها ، كانت غير مفتقرة الى استعارة الكلام ، اذ كل شعب وكل امّة ، كانت تتداول من الالفاظ ما يدل على المعاني التي عندها ، على القدر المطلوب . ولكن لمّا عدلت عن حالة البداوة الى حالة الحضارة ، وعن التوحّش الى التأنّس ، واخذ التجّار يضربون في البلاد للتجارة والارتزاق ، واختلطت الشعوب بالامم المجاورة لها ، وادركت من المعاني ما كانت تجهل في بلادها واقطارها ، اضطرت امّا لتصاقب الديار وقرب الجوار ، واما للمخالطة والتجارة ، وامّا لكسب العلم ؛ الى اخذ الفاظ عن جيرانهم وخلطائهم ، وهذه سنة الله تعالى في خلقه ، ان المفضل يعطي والمحتاج يأخذ .

فاذن ليست اللغة العربية غنيّة كما يدعي بعضهم ، ولا هي غزيرة المادة على وجه الاطلاق ، كما يظن فريق متعصب لها عن هوى وميل ؛ بل هي غنيّة من وجه فقط ، وغزيرة المادة من وجه ايضاً ؛ وهي في حاجة الى الالوف من الالفاظ ، وينقصها الكلام الكثير في علم المواليد ، وفي علم الهيئة ، وفي علم الطب ، والتشريح ، والصيدلة ، والكيمياء ، والطبيعيات ، والآلات ، و . . . فمن اين نأتي بهذه الالوف المؤلفة من الالفاظ الدالة على المعاني ، اذا كان لا يصحّ اخذها عن لغة اخرى ؟ وكيف نقدر ان نعبر عن تلك المعاني ، ما دمنا ننفر من الدخيل ؟ ولماذا هذا النفور ، وقد استعمل العرب الصُرحاء الدخيل في عهد جاهليتهم ؟ نعم ان كتابنا قد عرّبوا الفاظاً قليلة ، ولكن ما عرّبوه في جانب ما نحتاج اليه يجري مجرى القطرة من البحر الافيح ، او الرملة الواحدة من حبل الرمل . بل كم من مرّة اصطلحوا على كلمة ، ثم نبذوها ، ثم عادوا اليها والامثال على ذلك كثيرة ، . فلله در من قال : انا اتفقنا على عدم الاتفاق وحسب .

٦

هل الترادف غنى للغة حقيقي

أما تبجحهم بان العربية غنية ، ومن اغنى اللغات ، فهو ضرب من الدعاوة لا غير . فصدر هذا القول كثرة الترادف والمتوارد ، اي ان للاسد ٤٠٠ اسم وقال بعضهم ٥٠٠ ، وللداهية مثل ذلك ، وللسيف ٣٠٠ ، وللحية ٢٠٠ وقال بعضهم ٣٥٠ ، وللناقة ٢٥٥ وقال بعضهم بل ٥٠ فقط ، وللماء ١٧٠ ، والخمر ١٠٠ ، وللبئر ٩٠ ، وللمطر ٧٠ ، وللظلام ٥٢ ، وللسحاب مثل ذلك ، وللشمس ٣٠ ، وللسنة ٢٤ ، وللثور ٢١ ، وللبن ١٣ ، والعسل مثل ذلك فضلاً عن الصفات ، اذ عندهم للقصير نحو ١٦٠ صفة ، وللطويل ١٠٠ ؛ وعن ترادف الافعال كقولهم : ابرتْ فلاناً العقرب ، وزعتْه ، وشحطته ، وضربته ، وكزته ، ولتفته ، ولدغته ، ولزبته ، ولسبته ، ولسعته ، واسته ، ولكمته ، ونذغته ، ونهشته ، ووكزته ؛ وادل البابَ ، وابهه ، وترّعه ، ودسه ، وردّه ، ورتجه ، وزجله ، وازلخه ، وسفقه ، وسكره ، وصفقه ، وصكه ، واصحقه ، واعجمه ، وعلّقه ، واقفله ، وكظمه ، ولصّه ، ولطّه ، وامسكه واوجنه ، ووصده ، وغير ذلك . وعن ترادف الجمل من مثل قولهم في طلوع الصبح : بثّ الصبح ظلامه ، وبدا حاجب الشمس ، وبدا محيّا الغزالة ، وبرزت الغزالة من حجابها ، وحسرت الشمس قناعها ، وسطع عمود الصبح ، وشاب غراب الليل ، وطار غراب الظلام ؛ وفي زوال الشمس وغروبها : مال ميزان النهار ، وزلّت قدم العصر ، وبقل وجه النهار ، وجنحت الشمس الى مغاربها ، وانحدر كوكب الشمس الى مغربه ، ودبّ الشفق الاحمر في حاشية الافق ؛ وفي اقبال الليل : بسط الليل على الكون جناحهُ ، وجثم الليل في بحشه ، وخفقت راية الظلام ، ودجا جنح الليل ، وارخى الظلام سدوله ، وضرب الليل بارواقه ، واغتمض جفن الليل ، ونشر الليل اجنحته السوداء على الكون ، الى غير ذلك من الاوصاف الكثيرة ، والترادف المملّ ، مما يزيد في صعوبتها ، وينفّر الدارسين منها ، ومن الاقبال عليها .

على اننا لسنا نرى ، ولا يرى معنا ، كل من حكم عقله في كثرة الترادف

والأوصاف ، غنيّ تحقيقاً وتدقيقاً ، ما دامت اللغة في حاجة ماسّة الى الفاظ كثيرة لا تُعدّ ولا تُحصى للدلالة على المعاني التي ليست فيها . فالغنيّ كل الغنى هو الذي لا يحتاج الى غيره بوجه من الوجوه ؛ وإلّا مهما احتاج الى غيره ، فهو ليس غنيًّا على الاطلاق ، بل من وجه فقط . وكانّ هذا الغنى المزعوم ، واليسار الموهوم ، نتج من تعدّد القبائل ، والعمائر ، والبطون ، والافخاذ ، وتنوّع لغاتهم ، وكثرة لهجاتهم ، واختلاف السنتهم . ولمّا جمعوا كلامهم ودوّنوه ، لم يعتمدوا على القبيلة الافصح لساناً ، والاصدق بياناً ، بل جمعوا كل ما سمعوه منهم ، على اختلاف قبائلهم ، وعمائرهم ، وبطونهم ، وافخاذهم ، ولغاتهم ، ولهجاتهم ، والسنتهم ، فاتى ذلك الترادف الممل ، والتوارد الذي لا جدوى فيه سوى اتعاب الدماغ ، واسهار الاعين الاحاطة به . وكذلك لا يأتي المتعلم على حفظ اسماء الاسد مثلاً ، او الداهية ، او الجمل والناقة ، او السيف والرمح ، او الشعر ، حتى يتعلم نصف لغة اخرى ، ويقوى على التعبير بها عن افكاره ؛ فضلاً عن لغة الاضداد ، التي توجب اضاعة وقت لا يبتهان به . فنحن نرى ان هذه المحاسن معايب ، وهذا الغنى تخمة ، واملّ هذا من جملة الاسباب التي تحدو بالكثيرين الى التنكب عن العربية والنفور منها .

٧

هل الاعراب كمال في اللغة

ليس الاعراب كمالاً في اللغة ، بل هو ضغث على اباله صرفها ونحوها ، وتفرّع اصولها وقواعدها ، واختلاف آراء علمائها ونحاتها ، حتى بات النحو مهما كان فظيعاً ، يجد له المرء تخريجاً في كتب النحو . فلو كان آخر الكلم ساكناً ، او مبنيًّا غير متغير ، لهان على المتعلمين شيء من الصعوبات . أما يكفينا ما نجده من المصاعب في تحريك اول الكلمة ، ووسطها ، وفي تحريك عين الماضي والمضارع ، حتى نزيد على ذلك حركات الاعراب ؟ فكم من تعلم لغات ، بينما غيره لم يتقن القراءة .

فاذن مهلاً ايها الكتاب الافاضل ، لا تتمدّحوا بامور لا تعود على العربية بالفخر . نعم هذه هي اللغة ، ولا يستطاع تغييرها في الوقت الحاضر ، ولكن

ينبغي لنا تسهيلها على الدارسين قدر الامكان ، هذا اذا اردنا تسهيلها على المتعلمين ، وتحببها الى الطالبين.

٨

بعض وسائل تسهيل اللغة

اولا : ترك استعمال الترادف ، والاقتصار على الاسم الشائع ، الذي يفهمه كل الناس ، ويعرفه سوادهم الاعظم ؛ مثلاً ان نستعمل لفظ الاسد للحيوان المعروف ، ونترك : الليث ، والهزبر ، والضيغم ، والشدقم ، وقس عليه انواع المترادفات.

ثانياً : وضع معجم لغوي ، باتفاق بعض العلماء الاعلام ، يحوي الكلام السهل اللين ، القريب المتناول ، وترك الكلام الوحشي ، الجاهلي غير المأنوس ، والاقتصار في تعدية الافعال على حرف واحد ، واسقاط الباقي.

ثالثاً : تسهيل قواعد الصرف ، وترك القواعد التي لا خير فيها ، سوى اتعاب الطالب ، مثلاً تحريك عين الفعل ماضياً ومضارعاً ، والاعتماد على وزن او وزنين ، والاقتصار على مصدر واحد من الثلاثي ، وعلى جمع واحد فقط من جموع التكسير ، وعلى حركة واحدة مما يحرك بالتثليث ، وحذف بعض القواعد والفصول من النحو ، مثل باب الاشتغال ، والتنازع ، وتسهيل مواضع الصرف الى غير ذلك. فاي نفع يا ترى في هذه القواعد ، سوى التثقيل على الطالب ؟

رابعاً : وضع كتاب صرف ونحو يحوي القواعد الاساسية ، يكون حافلاً بالتمارين ، جامعاً بالتقليل من اللفظ ، اخص القواعد ، بعبارة سهلة حرة خالصة من التعقيد ، على نسق اللغات المتمدنة . فما دمنا لا نريد ان ندرس اصول اللغة ولا معجماتها ، فلن يحصل للغة تقدم ابداً.

خامساً : الاقبال على اختراع الالفاظ الخالية منها اللغة ، سواء كان بالاستعارة ، او النحت ، او التعريب على نوع مقبول لا ينفر منه الذوق ، ولا يمجه السمع. فهذا ما اردنا التنبيه اليه ، مؤملين ان يصادف اذناً صاغية ، وقلوباً مفكرة واعية ، وعلماء فعالين لا قوالين.